فيلسوف الصين والآداب الصينية

قال الاستاذ مكس ملّر اللغوي في الخطبة التي لخّصناها في الجزء الماضي انهُ لا يليق باحد من الانثربولوجيين ان يكتب عن شعب وديانتهم ما لم يعرف لغتهم جيدًا . وعلى هذا النحو ترى الكتّاب قد اخذوا يتحرون البحث في ما كتب عن الامم البعيدة واخلاقها واديانها وقد رأينا الآن رسالةً لاحدهم شرح فيها آداب فيلسوف الصين شرحًا يشفُّ عن انهُ درس اللغة الصينية وعاشر اهلها وشافههم زمانًا طويلاً فكتب عن رويّة واختبار ولذلك اقتطفنا عنهُ ما يأتي :

كنفوشيوس ويقال لهُ بالصينية كنغ فونسي فيلسوف الصين الشهير ولد في نحو سنة ٥٥٠ قبل المسيح وابوهُ من احد البيوت التي كانت حاكمة في بلاد الصين على قبيلة من قبائلها العديدة وكان قد تزوّج بامرأتين او ثلاث ولم يرزق الاّ ولدًا كسيحًا . ثم تزوّج في شيخوختهِ بامرأة فتية فولدت لهُ كنفوشيوس الذي نحن في صددهِ ومات وعمر ابنهِ نحو ثلاث سنوات ولم يخلف لهُ شيئًا من الثروة . فتعلّم كنفوشيوس العلوم المعروفة في بلاد الصين حينئذٍ وتزوّج وعمرهُ عشرون سنة وتوفيت امهُ على اثر ذلك فاضطرّ ان ينقطع عن الاعمال ثلاث سنوات حدادًا عليها تبعًا لعوائد البلاد . ويُظَنُّ انهُ قضى هذه المدة في درس المؤلفات القديمة . ولمّا مضت مدة الحداد اخذ يعلّم في احدى المدارس وكانت نفسهُ تطمح الى اصلاح شؤون المملكة فترك التعليم وانتظم في خدمة الحكومة ورأى من شوائب الحكّام ما زاد رغبتهُ في اصلاح شؤون البلاد فعزم ان يشدَّ ازر احد المترشحين للملك وينظم لهُ مملكة بالغة حد الكمال فتراها بقية ممالك الصين وتنضمّ اليها وتصير البلاد كلها مملكة واحدة يسود فيها السلام وترتقي الفضائل

ولكنهُ طاف ممالك الصين المختلفة ولم يرَ احدًا يلبّي دعوتهُ فغادر امانيهُ يئسًا منها وجمع بعض التلامذة وانقطع الى تعليمهم وارشادهم بقية عمرهِ . ولا نعجب من حبط مساعيهِ وخيبة املهِ بل نعجب من انهُ امّل ما لا يؤمّل من شعب تولّتهُ المفاسد وتمكنت منهُ الشرور لانهُ يُستخلص مما كتبهُ هو ومما كتبهُ منشيوس الذي جاء بعدهُ ان البلاد كانت في اسوإ حال فقد قال منشيوس ان الناس انكروا في زمانهِ الفرق بين الصلاح والطلاح والفضيلة والرذيلة . وخلعوا كل قيود الآداب سرًّا وعلنًا ولكنّ اسم كنفوشيوس وتعاليمهُ كانت لم تزل حية تفعل في النفوس فانقاد منشيوس اليها وكان اقدر من كنفوشيوس على اجراء الاصلاح المطلوب

فرأى ان لا رجاء باعتضاد الحكام على الاصلاح لانهم كانوا افسد من عامّة الشعب فعكف على جمع كتابات كنفوشيوس وكانت متفرقة ايدي سبا فجمعها وشرحها وتعاقب عليها الشرّاح بعدهُ الى يومنا هذا

وفي ما كتبهُ كنفوشيوس خمس قضايا سمّاها نسب الانسان الخمس وهي النسبة بين الملك ورعيتهِ وبين الرجل وزوجتهِ وبين الاب وابنهِ والاخ واخيهِ والانسان وغيرهِ . وعلى هذه النسب الخمس مدار القوانين السياسيّة والاديبّة والاجتماعية التي سادت على بلاد الصين والبك شيئًا من تفصيلها

الاولى النسبة بين الملك ورعيتهِ . كان كنفوشيوس نصيرًا للسلطة المطلقة ولعلهُ انقاد الى ذلك بما كان جاريًا في عروقهِ من دم الملوك . ومن رأيهِ ان نسبة الملك الى المملكة نسبة الاب الى اولادهِ . ولم يلتفت الى الاسلوب الذي ينال بهِ الملوك الملك بل حسب ان وجودهم على منصة الملك كافٍ ليوليهم الحق بخضوع رعيتهم لهم خضوعًا مطلقًا ولكنهُ اوجب عليهم ان يعاملوا الرعية كما يعامل الاب اولادهُ واوجب على الرعية ان تخضع لهم كما يخضع الاولاد لآبائهم واوجب التأديب على المجرمين بحسب الجريمة من الجلد الى الصلب واوجب على الملوك ان يختاروا جميع الموظفين بحسب استحقاقهم لا بحسب مشيئة الملوك ولكنهُ لم يفلح في ذلك . نعم ان اهالي الصين يمتحنون كل طلّاب الوظائف حتّى يومنا هذا ولكنهم يجرون في ذلك على اسلوب يهزأ منهُ العقلاء فاذا طلب واحد وظيفة في دار المكس مثلاً امتحنوهُ في رمي السهام واستظهار بعض الفصول من الكتب القديمة وقس على ذلك

ولا شبهة في ان تعاليم كنفوشيوس اثّرت في اخلاق الصينيين وعوائدهم فقادتهم الى الخضوع للموكهم والّفت بين اقسام المملكة رويدًا رويدًا الى ان جاءها التتر واستولوا عليها كلها ولم ينهض الصينيون بعد ذلك لخلع نير التتر الاّ منذ عهد قريب فاستعانت الدولة عليهم بانكلترا وفرنسا واستخدمت الجنرال غوردون لهذه الغاية فاخمد الثورة وفرّق شمل العصاة ومن ثمّ منعت الحكومة دخول البارود والبنادق بلادها ومنعت رعاياها من اقتنائها وهي الى يومنا هذا لا تسلّح جنودها الصينيين الاّ بالقسي والسهام والرماح والبنادق القديمة وتقيم عليهم قوّادًا من التتر ولكنها تسلح جنود التتر بالاسلحة الاوربية الجديدة وتنظمهم بحسب النظام الاوربي الحديث لكي يبقى ازرها مشدودًا بهم ولا يقوى الصينيون الاصليون عليها

والقضاة والولاة كلهم من التتر وهم يقضون بين الشعب ويسوسونهم بحسب مشيئة الملك

لا بحسب مصلحة الشعب ويخضع الشعب لهم كرهًا لا اختيارًا . والضرائب فادحة ورجال الحكومة يتقاضونها اعتسافًا غير مراعين سنة مخصوصة . وللاجانب امتيازات كثيرة اثروا بسببها شأنهم في اكثر بلدان المشرق قضاء من الله على الشرقيين . فاذا شحن الشاي مثلاً في سفينة صينية اضطرّ اصحابه الصينيون ان يدفعوا عليه ضريبة كلما سارت السفينة به ثلاثين ميلاً واذا كانت السفينة لاحد الاميركيين مثلاً ورفع عليها العلم الاميركي لم يدفع على الشاي شيئًا . واذا اتى رجل ببقرة الى المدينة ليبيعها فيها اضطرّ ان يدفع عليها مال الدخولية واذا خرج اجنبي خارج المدينة واشتراها منه دخل بها المدينة ولم يدفع عليها شيئًا ولذلك نبغ الصينيون في اختراع الاساليب لخداع حكومتهم تخلّصًا من ثقل المغارم وحقدوا على الاجانب وانتهزوا الفرص للايقاع بهم

الثانية النسبة بين الزوج وزوجته . وعندهم ان نسبة الزوج الى زوجته نسبة الملك الى رعيته فله عليها سلطة مطلقة ولكنه مضطرّ ان يستعمل هذه السلطة بالمحبة والحنو . وعليها ان تطيعه ولكن يُشترط ان يكون اهلاً لطاعتها . والضرار غير ممنوع الآن في بلاد الصين ولكنه لم يكن معروفًا في ايام كنفوشيوس على ما يظهر اذ لا اشارة اليه في الكلام على النسبة الثانية . وقد وضع للزوجين قواعد وقوانين لو روعيت لعاش المتزوجون اهنأ عيشة ولكنها لم تراعَ . والآباء ينتخبون الازواج لبناتهم والزوجات لابنائهم وهنّ لا يعلمون شيئًا وكأنهم يتعاملون في الزواج معاملتهم في بيع السلع واذا لم يرتضِ الرجل من زوجته امكنه ان يبيعها او يطلقها ولا جناح عليه ولكنّ النساء راضيات بحالتهنّ والآداب العمومية في الصين ارقى منها في اوربا ومع ذلك فحال المرأة دون ما اوصى به كنفوشيوس

الثالثة النسبة بين الاب والولد . وفيها ان الولد يجب ان يطيع والدهُ طاعة تامة . وان اكبر رجل في العائلة هو رئيس العائلة المطاع في جميع الامور وله السلطة التامة في تدبير شؤونها وعلى كل ولد ان يطيعه وان يطيع اباهُ الخاص ايضًا . وطاعة الولد لوالدهِ لا تنقضي بموت الوالد بل تمتد الى ما بعد موته فعليه ان يزور قبرهُ مرة في السنة ويرمّم البناء الذي عليه . اما تقديم الخمر والطعام للميت فليس مما اوصى به كنفوشيوس بل هو عادة مدخلة . وقد زعم الغرباء الذين زاروا بلاد الصين ان الصينيين يعبدون اسلافهم لما شاهدوهُ من تكريمهم لمدافنهم والحقيقة ان تكريم الصينيين لمدافن اسلافهم ليس باكثر من تكريمنا لمدافن العظماء منا فاننا نحن نضع الازهار والرياحين على مدافن امواتنا ونقيم لهم الانصاب ونضع صورهم في بيوتنا كما يفعل الصينيون بمدافن امواتهم وبالالواح التي

تعلقونها لهم في بيوتهم . ويرغب كل صيني في ان يكرّم بعد موته ولذلك يوصي بنقل عظامه الى بلاده اذا مات بعيداً عنها لكي يهتم اولاده بدفنه والاعتناء بقبره وحفظ اسمه

ويمتاز الصينيون باكرامهم لوالديهم والاعتماد على مشورتهم في الشدّة والرخاء وعندهم ان ما صلح لوالديهم يجب ان يصلح لهم وهو من اقوى الموانع لاقتباسهم اساليب التمدن الحديث لانهم يحسبون ان ما كان كافياً لوالديهم يجب ان يكون كافياً لهم ولذلك لم يتقدّموا في الاختراع والاستنباط بل وقفوا على الدرجة التي كانوا عليها منذ اكثر من الفي سنة فترى ثيابهم و بيوتهم وسفنهم على نفس الشكل الذي كانت عليه في اول تاريخهم . ولا شبهة في ان تعاليم كنفوشيوس قد ملّكت طاعة الوالدين في نفوسهم

الرابعة النسبة بين الاخ واخيه . ان وجوب الطاعة التامة للوالد لم يبقِ مجالاً للاولاد ليمتاز بعضهم على بعض فترى الاولاد كلهم متساوين في العائلة يعمل كلٌّ عمله ويأكل ويشرب ويكتسي مشتركين في ميراث ابيهم على حدٍّ سوى . والغالب انهم يعملون معاً في عمل ابيهم سواء كان فلاحاً او صانعاً او تاجراً . فابن الفلاح فلاحٌ وابن الاسكاف اسكاف ولو كثرت الاعقاب وقلما يترك الاب حرفة ابيه ويحترف حرفة أخرى . ولا يبيع الاخوة ميراثهم من ابيهم الاّ اذا رضوا بذلك كلهم ثم يقسمون الثمن بينهم على السواء . واذا اتّجروا فالربح يقسم بينهم على السواء بعد ان تؤخذ منهُ نفقات كلٍّ منهم ولذلك لا يكون بينهم رجل غنيٌّ واخوهُ فقير فالاخوة كلهم متساوون في الغنى او الفقر

الخامسة النسبة بين الرجل وغيره وهي تفرض التساوي بين الناس لان لكل احد حقّاً ان يعيش في هذه الدنيا ويتمتّع بالراحة والسعادة ويعمل كل ما يريدهُ على شرط ان لا يعتدي على حقوق غيره . والارض واسعة على سكانها واذا زاد عددهم فشايعهم الوباء وانتابهم الجوع فيجب ان يُحقّ كل انسان من اعتداء غيره عليه . هذا ما علّم به كنفوشيوس وحثّ على اتّباعه وذلك منطبق على ما علّم به الفضلاء في كل مكان وزمان

وسلطة كنفوشيوس ضعيفة الآن في بلاد الصين وليس له فيها الاّ نوادٍ خالية من الاصنام والتماثيل والصينيون لا يعبدونهُ كما يزعم البعض بل يكرمونهُ اكراماً كرجل صالح حكيم علّم شعبهُ الحكمة والصلاح . والعلماء منهم يقولون انهم تلاميذهُ وهم يطالعون كتبهُ ويسترشدون بها لا غير